

# النزعة الإنسانية

النزعة الإنسانية تيار ثقافي ازدهر في أوروبا ينظر إلى العالم بالتركيز على أهمية الإنسان، أي طبيعته ومكانه في الكون. ولقد كان للنزعة الإنسانية في صورتها الدينية وغير الدينية أشكال عديدة. ولكن كل الإنسانيين متفقون على أن الناس هم محور دراستهم. وكما قال الكاتب اللاتيني تيرينس قبل أكثر من ألفي عام: «أنا إنسان، ولا شيء إنساني غريب عليّ». فالنزعة الإنسانية تُعلم أن لكل شخص كرامته وقيمه ومن ثم يستحق أن ينال احترام الآخرين.

ومع أن النزعة الإنسانية تُضرب بجذورها في حياة وفكر اليونان القديم؛ فقد ازدهرت كحركة تاريخية في أوروبا من القرن الرابع عشر وحتى السادس عشر الميلادي، حيث شكّل منطلقها الأساسي لدراسة الإنسانية الجوهر الفكري للحركة الثقافية التي عُرفت بالنهضة. ولقد ظل الموقف الإنساني من الحياة مستمرًا إلى الوقت الحاضر.

تطور النزعة الإنسانية. بدأت الحركة الإنسانية في أوائل عصر النهضة بالاكشاف المثير من جديد لكتابات الإغريق والرومان الكلاسيكية. وهي كتابات لم تكن معروفة في أوروبا منذ انهيار الإمبراطورية الرومانية أو كانت معروفة في صور ناقصة وغير دقيقة. وقد اهتم منظرّو النزعة الإنسانية بالآداب القديمة ليس فقط لأنها كانت نماذج للأسلوب الأدبي، ولكن أيضًا لأنها كانت مُرشِدًا لفهم الحياة.

وكان هذا الفهم مناقضًا لما أكده كثير من مثقفي وعلماء القرون الوسطى الذين لقّنوا أن الحياة على وجه الأرض يجب ازدرائها واحتقارها، إذ نظر أمثال هؤلاء إلى الكائن الإنساني على أنه مخلوق آثم.

رفض أنصار النزعة الإنسانية هذه الصورة الآتمة للطبيعة الإنسانية. وانبثقت طريقتهم الجديدة في النظر إلى الحياة أثناء هذا الإحياء المعرفي في القرن الرابع عشر وانتقلت إلى فرنسا، وألمانيا، وإنجلترا. وفي القرن السادس عشر، كانت النزعة الإنسانية أساس صلة دولية وثيقة وحمية بين العلماء والدارسين.

رؤاد النزعة الإنسانية وتأثيرهم. يأتي جانب كبير من الثقافة الغربية الحديثة من إنجازات النزعة الإنسانية. وما زالت روح هذه النزعة وأهدافها تؤثر في حقول الفن والتعليم والحكم.

الفنون. كان معظم الإنسانيين الأوائل من المتدينين النصارى. ولكن الاتجاه الرئيسي لأعمالهم قادم بعيداً عن تعاليم زهاد العصور الوسطى التي دعت إلى نبذ هذا العالم وملذاته. وأكد بدلاً من ذلك على الاعتناء والاهتمام بشكل أكبر بحقائق الطبيعة البشرية.

إن أدب الإنسانيين أدب واقعي وانتقادي، وكثيراً ما يكون هزلياً ساخراً. ولقد صوّر الشاعر الإنساني بترارك الإيطالي في قصائده الشعرية شخصية لورا كما في الواقع وليس في هيكل الرّمز الديني الذي كان يُطبق على المرأة في القرون الوسطى. كان الإنساني الهولندي إرازمس قد حاول العثور على العناصر المشتركة في الفلسفة اليونانية والفكر النصراني. ولكن عمله الشهير، مدح الحُمق، كان هجاء ذكياً للملوك ولرجال الكنيسة، وإدراكاً لطبيعة الخطأ في التفكير البشري العام.

روى كلٌّ من الشاعر الإنجليزي جفري تشوسر في حكايات كانتربري والشاعر الإيطالي جيوفاني بوكاتشيو في ديكاميون قصصاً هزلية تكشف عن فهم ذكي للطبيعة البشرية. هجا الفرنسي فرانسوا رابليه في جارجانتشوا وباتشاجيرل الكنيسة والجامعات وغيرها من النُظم والمؤسسات. جَمَعَ رابليه المعرفة الواسعة والحكمة مع الهراء المرح والحياة الأرضية. كان الإنساني الإنجليزي توماس مور كاهناً خاشعاً مات شهيداً، ولكن كتابه اليوطوبيا، الذي يمثل أشهر كتبه، كان نقداً للمجتمع في عصره. وبالرغم من أن جميع هؤلاء الإنسانيين تبنا تصوراً مثالياً سامياً لطبيعة الإنسان، فقد نظروا إليها نظرة صريحة وأمينة.

هذه المحاولة الصادقة من الإنسانيين، للجمع بين النظرة الواقعية إلى الحياة والنظرة المثالية، نجدها أيضاً في التصوير التشكيلي والنحت. فقد استمر رسّامو ونحاتو عصر النهضة في ابتداع فن ديني لتزيين الكنائس، إلا أنهم هجروا تدريجياً أسلوب فن العصور الوسطى التقليدي الجامد، وطوّروا أساليب تؤكد على الفردية. كما تحوّل الرسّامون من الإنسانيين إلى رسم موضوعات غير دينية، مثل المَعارك وصور الأشخاص

والموضوعات الكلاسيكية. فرسم بيتر بروجيل الأكبر الهولندي، مناظر واقعية حية للحياة الريفية. كما أقام النحاتون من الإنسانيين، ومنهم دونا تيلو ومايكل أنجلو، تماثيل واقعية غنية بالتفاصيل الدقيقة والصفات الفردية المميزة. لقد عرض كل هؤلاء الفنانين الرجال والنساء كما هم عليه، بكل أوضاعهم الجسدية المتنوعة وملاحظهم وشخصياتهم. كما صور فهم الناس بكل مهابتهم وبوصفهم جديرين بالإعجاب.

التعليم. يعني التعليم بالنسبة لإنساني عصر النهضة تدريب وتوجيه الإنسان المثالي أو الإنسان العالمي. وهو الشخص الماهر في كثير من مجالات المعرفة بما في ذلك الفن والعلم والرياضة والسياسة.

وبعد ذلك بزمان طويل، في القرن التاسع عشر، حدّد الإنساني الإنجليزي ماثيو آرنولد بعض الأهداف التي يُمكن القول بأنها أفضل وصف عصري للتعليم المثالي من منظور النزعة الإنسانية. أراد آرنولد للناس أن يتعرفوا على أفضل ما قيل وأنتجه الفكر في العالم. فمثله الأعلى هو الشخص الذي تتوازن كل قواه فهو الذي يملك المعرفة، وهو الذي يعرف كيف يعيش في انسجام مع الآخرين. إنه الشخص الذي يُقدّر الجمال، وتتوافر لديه المعايير السامية الرفيعة للحكم الأخلاقي.

ويتركز التعليم الإنساني في العصر الحاضر في الإنسانيات التي تشتمل عادة على الدين والفلسفة واللغات والآداب، والتاريخ والفنون. هذه المجالات تشتمل على المثل العليا للنزعة الإنسانية، وذلك باعتبار أنها تسعى إلى تفسير معنى الحياة، أكثر من مجرد وصف العالم الماديّ أو المجتمع.

نظام الحكم. كانت معارضة النزعة الإنسانية للاستبداد السياسي في أخريات القرن الثامن عشر ذات أثر مهم في الثورتين الأمريكية والفرنسية. فكل من إعلان الاستقلال الأمريكي والإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان يؤكدان شرف الإنسانية وكرامتها؛ ولذا فهما وثيقتان إنسانيتان بالإضافة إلى كونهما سياسيتين. ولقد كان بنجامين فرانكلين وتوماس جيفرسون وغيرهما من الزعماء الثوريين الأمريكيين من بين رواد النزعة الإنسانية في عصرهم.

النزعة الإنسانية في الوقت الحاضر. يعتقد كثير من التربويين والفلاسفة أن أكبر التّحديات التي تُواجه الإنسانية، والتي تتمثل في الحقيقة تهديدًا لأمن المجتمع، إنما تأتي من التأكيد الزائد على العلم والتكنولوجيا. إنهم يدركون أن الإنجازات العلمية قد ضاعفت كثيرًا من معرفتنا وقوتنا، ولكنهم يؤمنون أيضًا بأن على النزعة الإنسانية أن تُعلّمنا كيف نستخدم هذه المعرفة وهذه القوة بطريقة أخلاقية وإنسانية.